الموقع الرسمي لفضيلة الشيخ

محمد سيد حاج

رحمه الله

محاضرة

الخيانة

للشيخ محمد سيد حاج رحمه الله

نص مفرَّغ من التسجيل وحُرِّر للقراءة: صُحِّحت فيه الهمزات والترقيم والآيات، وحُذفت مواضع لم يتبيّن فيها الكلام. المرجع هو التسجيل الصوتي.

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله الأمين، وعلى آله وأصحابه أجمعين. ما زلنا مع ملف الأخلاق السيئة والقبيحة في التربية، وذلك أخذًا بالإنسان نحو المراقي، عن طريق الترفع عن الدنايا وعن سيئ الأخلاق. وقد استعاذ النبي صلى الله عليه وسلم من الشقاق والنفاق ومن سيئ الأخلاق، وكان يقول: «اللهم اهدني لأحسن الأخلاق فإنه لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئ الأخلاق فإنه لا يصرف عني سيئها إلا أنت».

فتبين لنا أن الكمال في الأخلاق أن تتصف بالحسن منها، فلو أن شخصًا تجمل بأحسن الأخلاق وضم إلى ذلك القبيحة ما كان من أصحاب الكمال في الأخلاق. وعندي والله أعلم لا يمكن أن تجد صادقًا كذابًا، إما الصادق وإما كذاب؛ إذا صدق فإنه خرج من الكذب، وإذا كذب فإنه خرج من الصدق وإن ادعاه، وقل أن تجد أمينًا وخائنًا، لأنه لمجرد أن يخون فقد الأمانة، ولمجرد أن يكون أمينًا فإنه ترفع على الخيانة.

ولذلك من هذا المنطلق تحدثنا في سلسلة دروسنا الماضية كلها عن جملة من الأخلاق القبيحة، وكان هدفنا أن نربي أنفسنا بتجنب القبيح، وبالترفع عن الرديء والسيئ من الأخلاق. واليوم سوف أناقش خلقًا من الأخلاق الذميمة جدًا؛ آخر خلق تحدثنا عنه كان عن التخنث، واليوم أتحدث عن الخيانة، وهذا من أسوأ الأخلاق.

كما درجنا على أن يكون مدخلنا دائمًا أن نتحدث عن الكلمة من حيث اللغة والاصطلاح. الخيانة في اللغة النقص، وذلك لأن الخائن ينتقص ما اؤتمن عليه، والخيانة أيضًا في اللغة النقض، أن تنقض الشيء، والخيانة في اللغة الترك. هذا من حيث اللغة. من حيث الاصطلاح قال الجاحظ: الخيانة الاستبداد بما اؤتمنت عليه من شيء، لا سيما في الودائع والأموال.

والله يقول: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ﴾، نسب للعيون خيانة. في زول خاين وفي عين خاينة، وهكذا وفي ضمير خاين. الخيانة ليست في الأموال والودائع فقط. وفي التنزيل نوع خيانة في العقائد والأديان، قال تعالى: ﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا...﴾، وليست هذه بخيانة أموال ولا أعراض، إنما بخيانة معتقدات وأديان. ولذلك قال تعالى: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾، فسمى المخالفة في العقيدة خيانة، كما سوف نعرف بعد قليل.

وقال المناوي رحمه الله: الخيانة التفريط في الأمانة؛ يدوك أمانة ويفرط فيها. وأجمع منه تعريف ابن الجوزي للخيانة الذي قال: الخيانة تفريط فيما اؤتمن عليه. لكن الخيانة في كل ما أودعك الله عز وجل وأودعك الناس، فما أودعك الله إياه إذا فرطت صرت خائنًا. لذلك قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾، ففي خيانة لله وخيانة لرسوله عليه الصلاة والسلام، وهذه أعم. وقال القرطبي رحمه الله: الخيانة عدم الوفاء بالعهد.

وردت الخيانة في القرآن على صور. أولًا: سمى الله المعصية خيانة، قال تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾، بارتكاب المعصية، فسمى المعصية خيانة. الصورة الثانية: الخيانة في العهود والمواثيق، ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾.

ووردت الخيانة في القرآن بمعنى الزنا، قالت امرأة العزيز: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾. إذًا الخيانة قد تكون بمعنى الزنا، وقد تكون الخيانة بمعنى ترك الأمانات، قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾. فوردت الخيانة في القرآن على صور: المعصية، الزنا، ترك الأمانة، المخالفة في الديانة، بدليل قوله تعالى: ﴿فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾.

طيب، الخيانة حكمها. قال الذهبي: هي من الكبائر. وقال ابن حجر: مما اتفق عليه أن خيانة الأمانات والودائع من الكبائر. فالخيانة كبيرة من الكبائر، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾. ومن المهم جدًا أن نذكر هنا قوله صلى الله عليه وسلم: «آية المنافق

ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان».

الخيانة أعلاها درجة في الإثم وأكبرها في الخطيئة وأسوأها في الرداءة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ﴾. وكيف خيانة الله؟ خيانة الله بتضييع الفرائض، وبتضييع الشرائع، وبتضييع المسؤوليات التي عهدها إليك. وأعظم أمانة هي أمانة شرعه: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا﴾، فهذه أمانة عظيمة، من ضيع الشرائع صار خائنًا لله.

سبب نزول الآية: في حصار بني قريظة طلب بنو قريظة أن يرسل النبي عليه الصلاة والسلام أحدًا من حلفائهم القدامى، فأرسل عليه الصلاة والسلام أبا لبابة بن المنذر. أبو لبابة لما جاء ودخل على اليهود قالوا: أننزل على حكم رسول الله؟ قال: نعم. والنساء يبكون والأطفال يتشبثون به، ويتعلقون بثوبه. قالوا: ما حكم محمد؟ قال: نعم، انزلوا على حكمه. قالوا: ما حكمه؟ فأشار بيده إلى العنق، الذبح. لما أدرك أبو لبابة أنه قال هذا الكلام اعتبرها خيانة.

أبو لبابة من حصون بني قريظة إلى المسجد النبوي، ما رجع للجيش، ذهب وربط نفسه في سارية من سواري المسجد. زوجته تأتي بالطعام في وقت الوجبة، وتطعمه وترجع. أبو لبابة يبكي يقول: هلكت. قال النبي صلى الله عليه وسلم: أما وإنه لو جاءني لاستغفرت له، أما وإنه إذا ربط نفسه بالمسجد ما كنت لأفكه حتى ينزل الله فيه قرآنًا. وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾.

نزلت الآية في سورة الأنفال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾. أم سلمة امرأة ما صبرت الكلام ده، وقت السحر أخرجت رأسها وقالت: يا أبا لبابة، أبشر، قد أنزل الله فيك قرآنًا. جاء النبي صلى الله عليه وسلم وهو خارج إلى صلاة الفجر ليصلي بالناس، حل قيده.

الذين أدخلوا الأفكار المنحرفة في بلادنا، خاينين ولا ما خاينين؟ أدخلوا الأفكار المنحرفة في بلادنا كالرافضة والشيوعية وكالمناهج العلمانية، ما خاينين؟ هؤلاء خونة، خونة لله وخونة للأمة، خانوا الأمة. الذين جاءوا بالثقافات الواردة، الذين أدخلوا السفور والتعري وفساد الأخلاق في بلادنا، ما خانوا؟ إذًا هذا أول ضرب من دروب الخيانة.

خيانة الرسول، بأن يعلم الواحد السنة وطريقها ثم يسلك غيرها، أليست هذه خيانة؟ يقول العلامة ابن القيم: من سار خلف النبي صلى الله عليه وسلم وصل إلى الله ونجا، وإن سار حبوًا وزحفًا. يا إخوان، الكلام ده ثمين ولا ما ثمين؟ صح ولا ما صح؟ أي زول بيمشي ورا الرسول عليه الصلاة والسلام سيصل، وإن كان مشيه حبوًا. الذي يستقيم على السنة يعظمها يجلها ينفذها يتبعها يدعو إليها يدافع عنها يناصرها يذب عنها ينشرها، كل من فعل هذا مع السنة لا يعتبر من الذين يزحفون، إنما من الذين يطيرون.

﴿وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، الأمانات كثيرة، الفرائض، حتى كان بعض السلف يقول إن من الأمانات غسل الجنابة، فلو أن الشخص لم يحسن الاغتسال كان مضيعًا لبعض الأمانة. الوضوء أمانة. الصلاة كيف يا إخوانا؟ أعظم من الوضوء، إنما الوضوء وسيلة للصلاة المقصودة لذاتها والوضوء مقصود لغيره. وقس على ذلك الأمانات. نتكلم عن خيانة الله وخيانة رسوله عليه الصلاة والسلام وعن خيانة بقية الخلق، وهذه على دركات مختلفة.

قال النبي صلى الله عليه وسلم: «بين يدي الساعة سنون خداعات، يكذب فيها الصادق، ويصدق فيها الكاذب، ويؤتمن فيها الخائن، ويخون فيها الأمين، وينطق فيها الرويبضة». زول أمين، يقول له: إنت خاين. خاين ليه؟ لأنه لا يجاريهم وكان معرقلًا لطرق عيشهم وبعض كسبهم، فاستثقلوه وأرادوا أن يتخلصوا منه.

والرويبضة ماله؟ يتكلم. ولما سئل عن الرويبضة، لأن كلمة غير معتادة، قال: الرجل التافه، التافه بلغة عربية فصحى، يعني الحقير يتكلم في شؤون العامة.

ويقلدون في الباطل، يا أخي ما تقلدوا في حاجة كويسة. والله العظيم أقول لكم الصحف اليومية في بعضها مليئة بالخيانات، كلام عن قوامة الرجل، هدم من الدين، هدم من الأسرة. زمان القرآن لمن نزل القوامة الراجل كان بيصرف على المرة. لكن ربنا لمن أدى القوامة للرجل ما أدى عشان القروش، أعطاها لتوافر الخصائص النفسية عند الرجل التي تختلف عن المرأة.

لما ربنا نزل القرآن، ده خاتم ولا في قرآن تاني؟ طيب لما ربنا نزله هل كان بيعلم إن النسوان حيشتغلن وحيكون قروش أكتر؟ كان بيعلم؟ ونزل الكلام ده؟ الموضوع انتهى، ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ﴾. ودي سطحية، والله ده غباء، يقول القوامة والقروش، قروش شنو؟ يا أخي القوامة خصائص، ربنا أداه حق إنه يكون الراعي في البيت، والبيت ذاته كان ما بقى كده ما بيمشي يا أخي، ما بيمشي.

أنا ما قبل كذا تكلمت ليكم عن الأزواج، سلسلة طويلة عن العلاقات الزوجية، وحتكلم عنها بعد شوية فيما يسمى بالخيانة الزوجية. لكن قبل ما أجيها، التربية على تبعل الرجل واحترامه أساس.

أقول هنا بأن إشاعة الفاحشة، إشاعة كل المنكرات التي تؤجج الغرائز: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا...﴾. إشاعة ثقافة الجنس بغير ضوابط، يقول لك علموا الناس الجنس، وتحت هذا المسمى تشاع الفواحش ويتكلم بغير أدب عما بين الرجل والمرأة. وقد تجد من يأتي بهذا في فضائية من الفضائيات، تتكلم عن هذا الموضوع بكل جرأتها.

يقول لك: لا حياء في الدين، قال. يا إخوان، الدين ما فيه حياء؟ والله الدين كله حياء يا أخي. ربنا قال: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾، ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ...﴾. شف الأدب، الأدب في اللفظ يا أخي. والله يا إخواننا دي مشكلة كبيرة، مشكلة كبيرة، فبالتالي دي إشاعة الفاحشة، دي خيانة، خيانة للأمة.

طيب، نجي نتكلم عن الخيانة مع الناس في العهود والمواثيق. ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾، يعني رد إليهم عهدهم. أول حاجة يقولون: يا إخوانا، نحنا نقضنا العهد معاكم، اعملوا حسابكم، لأنه لا يحب الخيانة، وهذه خيانات كثيرة.

الحاصل كالآتي: كان لمعاوية بن أبي سفيان مع الرومي أن يضعوا الحرب بينهما كذا سنة، مثلًا خمسة سنة. بعد أن مضى من العهد أربع سنوات وثمانية أشهر، أخذ معاوية جيشه ووقف على مشارف دولة الروم في آخر حدود دولة المسلمين، على أساس ألا يقاتلهم إلا بعد مضي الأربعة أشهر. فجاءه عمرو، قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: إذا كان بينكم وبين قوم عهد فلا تشدوا عقدة شيء حتى يبلغ الكتاب أجله أو أن تنبذ إليهم على سواء. ماذا فعل؟ رجع معاوية بالجيش. عليك الله الأخلاق، يا أخي نحن ما ناس واعيين يا أخي، أمتنا دي ما أمة واعية يا أخي.

في عهد النبي عليه الصلاة والسلام جاء حذيفة بن اليمان رضي الله عنه وعن أبيه، بالمناسبة اليمان أبو حذيفة صحابي جليل، قتل يوم أحد شهيدًا. وقريش في طريقها إلى بدر للقتال، فأوقفوهما وسألوهما أسئلة، فأخذوا عليهم عهدًا ألا يقاتلوا مع محمد. لما جاءوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقد حشد الحشود، قالوا: يا رسول الله، لقد لقينا قريشًا، وإنا نقاتل معك. قال: انصرفا، نفي لهم بعهدنا ونستعين الله عليهم. نفي لهم بعهدنا، مش إنتم أديتوه العهد؟ خلاص الموضوع انتهى.

والله يا إخواننا، ده مع الكفار، والله في ناس أدوك عهود ومواثيق ويتحلف ويخون. لأن المؤمن إذا وعد أوفى، وإن عاهد أتم. ﴿فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾، لأن هذا من التقوى.

الخيانة منبوذة في الجاهلية. السموأل بن عادية، امرؤ القيس الكندي كان عنده مشكلة مع ملك قومه، فوضع عند السموأل بن عادية دروعًا وأمانات. هذا في الجاهلية يا إخوانا، هذا قبل الإسلام. جاء ملك كندة بجيش عرمرم وحاصر السموأل بن عادية في حصونه، فأبى السموأل أن يعطيه، فأخذ ولدًا من أولاد السموأل بن عادية، وقيدوه وأسروه وساوموه. قتل ولده وهو ينظر إليه من الحصن أمام عينه، أبى أن يعطي الدرع. قال: ما كنت لأخفر ذمتي ولا أخون عهدي. والله ما عنده دين، لكن عنده رجالة، جاهلي. قتل ولده أمامه، وحافظ على أماناته التي أعطي إياها.

طيب قلنا بأن من الخيانة خيانة العهود والمواثيق. ما تنط من البيع، ما تغير رأيك، بعته بعته، خلاص الموضوع انتهى. وخيانة الودائع والأموال، دي خيانة واضحة. وشوف يا إخوانا الإسلام ده رفيع في الخيانة في تحريمه، قال عليه الصلاة والسلام: «لا تخن من خانك...». لأن الخيانة خدعة في مقام الائتمان.

هل في فرق بين الخيانة والنفاق؟ قال الراغب الأصفهاني: الخيانة والنفاق سيان، غير أن النفاق أعم، فالنفاق في المعتقدات والخيانة في الغالب تربط بالأموال. طيب إذًا هنا نقول إن النفاق أعظم، والدليل على ذلك آية المنافق ثلاث، منهن إذا اؤتمن خان. من الخيانة خيانة في العقائد والأفكار والثقافات والمفاهيم، وهي تعتبر نوع خيانة. وقد استدللنا على ذلك بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ﴾، وبقوله: ﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا﴾، فنوع الخيانة في معتقدات نفاق.

في معاني قريبة من الخيانة، مثل الخداع والمكر والكيد، وقد وصف الله عز وجل نفسه بهذه الصفات الثلاث مقابلةً: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾، ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾، ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾. هذا محمود كمان، أما الخيانة ليس فيها كمال أصلًا.

قال: ﴿وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾. طيب، خانوا الله، المفروض يحصل: فخانهم الله، مش كده؟ لكن ربنا ما قال فخانهم الله، قال: ﴿فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾. قابل خداعهم بالخداع ومكرهم بالمكر، وكيدهم بالكيد، ولكنه ما قابل خيانتهم بالخيانة، لأن الخيانة شر محض وهي خدعة في مقام الائتمان، وإنما قابل خيانتهم بالإمكان منهم. ولذلك بطل قول القائل: الخاين الله يخونه، والله لا يخون أبدًا. ما يجوز تقول الخاين الله يخونه.

طيب الخيانة الزوجية، لا حول ولا قوة إلا بالله، دي بقى مشكلة كبيرة. المرأة تقول: اكتشفت أن لزوجي علاقات مريبة مع أخريات وما كنت أتخيل هذا. والله فعلًا الخيانة دي سيئة. مرتك إذا اكتشفتك إنك خنتها، من الصعب أن تحترمك. وممكن تمثل إنها تحترمك عشان تحافظ على قيام البيت، لكن بتكون محتقراك في دواخلها احتقار شديد. المرأة عرفت إن الراجل بيخون وممكن تصبر عليه، وممكن البيت يستمر، لكن سيستمر متماسكًا من الناحية الشكلية وليس حقيقة.

لكن الأسوأ من ذلك الخيانات: التلفونات والرسائل والإيميلات والونسات. دخل زوجها في مكان العمل، فوجد زوجته في الفطور تأكل الفول في مكان قصي وهي تضحك في قمة الاندماج مع زميل من الزملاء. وجمع الأهل والعشيرة، ونحن جيرانه، وتدخلنا حتى لا يعصف هذا البيت، وهدأنا الأمور، وقلنا له: ربما هذه الزوجة بريئة تتعامل مع الرجال بكل هذه البراءة.

الأفلام والمسلسلات التي تنقل واقعًا غير واقعها أصلًا هي التي تؤجج وتكرس هذه المسائل. والزنا خيانة، والدليل: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ﴾. دي الخيانة، إنه يختلس النظر اختلاسًا. والعكس كذلك، تلقى مرة تخلي زوجها يعاين في النسوان في التلفزيون، في المسلسلات.

نكون بذلك قد انتهينا من درسنا الذي كان تحت عنوان الخيانة، أسأل الله تعالى أن يجيرنا وإياكم منها. وبالمناسبة استعاذ النبي صلى الله عليه وسلم كما في حديث أبي داود في صحيح سنن أبي داود، استعاذ من الخيانة، قال: «أعوذ بالله من الجوع فإنه بئس الضجيع، وأعوذ بالله من الخيانة فإنها بئست البطانة».

للاستماع إلى المادة وتنزيلها

mohamedsayed.com/sounds/الخيانة/

تابع الحسابات الرسمية للشيخ

فيسبوك
MohammedSayedHaj

يوتيوب
@msayedhaj

تيليجرام
@msahaj

قناة واتساب
قناة الشيخ

إكس
@mohamedsayed_sd

الموقع الرسمي للشيخ محمد سيد حاج رحمه الله · mohamedsayed.com